مشروع القرى

الاصلاح الاجتماعى فى مصر

ونصيب طلبة الجامعة والمدارس العالية منه

للأستاذ عبد الله أمين

عضو مجلس إدارة المشروع

قد يخيل إلى المتعجل فى الحكم على الأمور أن الشعب المصرى قد خطا خطوات واسعات فى سبيل التقدم والاصلاح الاجتماعى، وذلك حين يرى ما فى أمهات المدن المصرية لا سيما القاهرة الأم الكبرى، عروس الشرق، من مبان شاهقة فخمة، قد بنيت على أحدث مثال، وأثثت بأفخر الأثاث، ومن أزياء حديثة يختال فى حللها القشيبة شبانها وشوابها، رجالها ونساؤها؛ ومن متاجر ودور للملاهى يُعرَض فيها من السلع والمناظر ما يُعرض فى متاجر أوربا وملاهيها؛ ومن مصارف وبيوت مالية ومدارس ومستشفيات وأندية وأنزال، وغير ذلك من مظاهر المدنية الغربية الحديثة.

أما المتأمل البصير فلا يرى فى شىء من هذه المظاهر دليلا على شىء ذى خطر من التقدم والاصلاح الاجتماعى فى مصر، لأنها كلها مظاهر مستعارة من الغرب لا ترتكز فى هذه البلاد على شىء من عناصر المدنية التى ترتكز عليها فى الغرب، وهى العلوم والفنون والصناعات والذوق المصرى والعادات والتقاليد والنظم الموروثة، ولذلك تعد فى مصر مظاهر كاذبة. وقد تعاون على استعارتها ثلاث جماعات، هى: (١) النزلاء الأجانب (٢) الوطنيون المفتونون بهم، التاسجون على منوالهم، وما أكثر هؤلاء وهؤلاء فى أمهات المدن المصرية، لاسيما مصر والاسكندرية (٣) والحكومات المصرية المتتابعة. وليس هؤلاء جميعاً هم الشعب المصرى.

إنما الشعب المصرى هو ملايين الفلاحين الكثيرة المقيمة فى القرى المصرية. وإذا جردت أمهات المدن المصرية من مظاهر المدنية الكاذبة أصبحت كالقرى المصرية شبراً بشبر وذراعاً بذراع. وأى شىء فى القرى المصرية لا يحتاج الى إصلاح؟ أمظاهر المدنية أم العماد الذى لا تقوم إلا عليه وهو عناصر المدنية؟ أم أساس هذه العناصر؟

إن كل شىء فى القرى المصرية بل فى مصر كلها أم المدنية القديمة والحديثة ومطمع أنظار الغرب، ومعقد آمال الشرق، فقير كل الفقر الى الاصلاح، فالأخلاق والعقائد وهى الأساس الذى تقوم عليه عناصر المدنية، والمنوال الذى تنسج عليه برودها قد أصيبت بالخلل والفساد، فهى فقيرة الى الاصلاح. والعلوم والفنون والصناعات والآداب والعادات والتقاليد والذوق واللغة والنظم المنزلية والمدرسية والاجتماعية والحكومية وغيرها من عناصر الحضارة لم يبق من محاسنها شىء، فهى أشد فقرا الى الاصلاح. والأزياء والمساكن والأثاث والتاجر والمصانع والمزارع والطرق والمتنزهات والأندية والمدارس وغيرها من مظاهر المدنية أصبحت ممقوتة بغيضة الى النفوس لبقاء أكثرها على ما كان عليه منذ آلاف السنين، ولانشاء أقلها على مثال غربى لا يلائم أخلاقنا وعقائدنا، فلا بد من إصلاحها وإصلاح كل شىء إصلاحاً نحتذى فيه مثال الأمور الصالحة فى الغرب، ثم نصبغها بصبغتنا ونجعلها ملائمة لأخلاقنا وعقائدنا ومزاجنا النفسى والعقلى.

وإذ كانت الأخلاق والعقائد هى الأساس الذى تبنى كل أمة عليه حضارتها، وكانت أخلاقنا وعقائدنا محتاجة الى الاصلاح كل الاحتياج، فقد وجب أن نبدأ باصلاحها، فاذا صلحت صلح كل شىء، وان لم تصلح فلا رجاء فى اصلاح. ألا تذكر قوله تعالى: « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ». ولا ينبغى لنا أن يعوقنا عن التصدر لاصلاح ما فى نفوسنا من مفاسد، وما فى عقائدنا من ضلال علمنا أن الأخلاق وهى الصفات النفسية ثابتة فى الأمم ثبوت صبغاتها الجسدية، وأنها لذلك لا تتغير إلا بمضى آلاف السنين، وأن العقائد لا تقل عنها ثبوتاً، لأننا اذا أمسكنا عن التصدر للاصلاح لهذا العلم فلن نتقدم له أبداً ولن نبلغ ما نريد أبداً. ولا ينبغى لنا أن ننسى بجانب هذا أن للتغيير عوامل فعالة تجعله سهلاً سريعاً وهى الحروب والنهضات القومية، والثورات الفكرية، وأن النهضة المصرية الحديثة من عوامل التعجيل للاصلاح، وان قيام المتعلمين آباء وأبناء بإثارة الأفكار وتوجيهها فى القرى الى الاصلاح مما يكفل لنا بلوغ المراد منه، فيجب أن نتعاون على هذه الاثارة لنبلغ الأمر الذى نبتغيه.

فاذا نحن أيقظنا بصيحاتنا ودعوتنا النفوس النائمة، وأصلحنا العقائد والأخلاق وهذبناها بما لا بد منه من العلم والمعرفة فلنعمد

بعد ذلك الى اصلاح كل شيء اصلاحاً يلائم أخلاقنا وعقائدنا ، أو مزاجنا النفسي والعقلي ، وإلا وضعنا بجانب كل حجر من أحجار الصرح الذي نبنيه معولاً لهدمه ، لأن الأمة التي تستعير مدنية لا تلائم مزاجها النفسي والعقلي لا تلبث أن تهدم ما بنت بثورة منها ، وحسبك دليلا على ذلك الثورة البلشفية التي قوضت أركان المدنية الغربية في روسيا ، فقد كانت روسيا شرقية في كل شيء ، فلما ولى أمرها بطرس الأكبر حملها على تقليد الغرب بالقوة فجاءت هذه المدنية الغربية غير ملائمة لأخلاق الروسيا وعقائدها لذلك هدمتها أخيراً . وبمثل هذا يتنبأ إمام علم الاجتماع في العصر الحاضر « جوستاف لوبون » للمدنية اليابانية التي نقلت عن الغرب في خمسين سنة . وبمثل هذا يمكنك أن تتنبأ للمدنية التركية الحديثة لأنها من عمل الحكومة لا من عمل الشعب نفسه ، وقد نقلتها كما هي بلا تهذيب ، ولأنها نقلت طفرة لا بالتدريج .

***

وليس المسئول عن هذا الاصلاح الحكومة وحدها ، فان الحكومات لا تقوى على كل شيء . وإن من الناس من يقصر عمل الحكومات على حماية الوطن من اعتداء بعض أبنائه على بعض ، ومن اعتداء الأجانب عليه . أما ما عدا ذلك فهو عنده من عمل الأمة وحدها ، ولئن استطاعت الحكومات أن تعمل كل شيء وحدها فانها لا تستطيع أن تقوم البتة بالمرافق الكبرى كالزراعة والصناعة والتجارة والتعليم والتهذيب ، فان هذا بلاشك من أعمال الشعوب ، ولا بأس بمعونة الحكومة فيه

والمسئول من الأمة المصرية عن تحرير ملايين الفلاحين المصريين من مفاسد الأخلاق ومن البدع والخرافات والأوهام والضلالات وتزويدهم بشيء من مكارم الأخلاق ومن العقائد والمعارف الصحيحة التي لابد لهم منها في دينهم ودنياهم ليصبحوا كأمثالهم في البلاد الراقية وليستطيعوا أن يقوموا باصلاح عناصر المدنية ومظاهرها إنما هم أهل المعرفة من البالغين الراشدين المصريين

لاشك أن العالم مسئول عن أخيه الجاهل ، فلو أن رجلين اجتازا طريقاً خطيرة ، وكان أحدهما علم بما فيها من خطر ولم يكن الآخر على شيء من العلم بما فيها من خطر ، ثم أصابهما فيها صائب من الأذى كان العالم حينئذ هو المسئول عن الجاهل

واذا كان أكثر طلبة الجامعة والمدارس العالية من الراشدين المكلفين شرعاً وعرفاً ، كانوا من المسئولين عن الاصلاح الاجتماعي ولا يرفع عنهم هذا التكليف أننا معاشر الآباء العارفين نحمل هذه التبعة لأن الأمر أكبر من أن يقوم به فريق دون فريق ، فليس هو من فروض الكفاية التي اذا قام بها بعض الناس سقط عن الباقين . وانما هو في الوقت الحاضر من الفروض الوطنية العينية التي يجب على كل ذي معرفة القيام بنصيب منها ، وقد تكون من الفروض الدينية . وأبناؤنا الطلبة مع ذلك أطهر قلوباً وأخلص نية وأشد غيرة وحمية وأقوى أبداناً ونفوساً ، فاذا خلا منهم ميدان الاصلاح فقد خلا من كل شيء

وإنا لانبغي من أبنائنا النجباء طلاب الجامعة والمدارس العليا أن ينصرفوا عن التزود من العلم وتكميل أنفسهم الى معالجة الاصلاح في القرى ، لأننا إن طلبنا ذلك منهم كنا خاسرين مسرفين نشترى إصلاح الفلاح بافساد الطبقة الممتازة التي نعلق عليها كل الآمال ، وإنما نريد من أبنائنا الطلبة النجباء عُدّة الوطن وأعظم كنوز ثروته أن يقسموا أوقاتهم وجهودهم على ثلاثة أمور لا رابع لها وهي : (١) طلب العلم . (٢) الرياضة البدنية واللهو المباح اللذين لابد منهما لحفظ الصحة وتجديد القوى والنشاط (٣) خدمة الوطن من أحسن الوجوه وهو نشر العلم والفضيلة بين سواده الأعظم في القرى

أما البطالة والكسل والخمول فقد آن أن يكون بين أبنائنا وبينها مايين المشرقين من بعد في هذا الزمن العصيب الذي يستهدف فيه للفناء كل انسان وكل جماعة لا يكون شعاره وشعارها الجد ، الاجتهاد ، اليقظة ، الاستقامة ، العمل ، التقدم . وانه ليعز علينا أن ينصرف فريق من شبابنا في أيام الدراسة وفي أيام العطل الى اللهو غير المباح والى الكسل والخمول ناسين أنفسهم ووطنهم . وان أخسر الناس صفقة وأعظمهم غبناً في رأيي شاب آتاه الله قوة الشباب وسلامة الأعضاء والصحة وفراغ البال ورزقه من يعوله ويكفل أموره ويسرت له سبل الاستفادة والافادة ، ثم هو مع ذلك يضيع هذه الهبات الثمينة والمواهب العقلية التي من بها الله عليه في اللهو والبطالة فلا هو ينفع نفسه ولا ينفع غيره . لا بل قد قد يكون بلاء على نفسه وعلى غيره

***

وما أشبه المصريين الآن بركاب سفينة تسير بالمجاديف مع

طائفة من سفن أخرى لا أقول تسير بالبخار ، وإنما أقول إنها تسير بالمجاديف مثلها ، تلك السفن هي دول الغرب . وتسعة أعشار من في السفينة المصرية نيام نوم أهل الكهف ، والعشر المستيقظ هو الذي يسير السفينة وحده ، على حين أن ركاب كل سفينة أخرى يتناوبون العمل بينهم ، فلابد لسواعد المصريين من الكلال ولابد لعزائمهم في النهاية من الخور ، ولابد لسفينتهم من الانقطاع عن السفن الأخرى . وأنت عليم بما يصيب هذه السفينة المنقطعة من البلاء

ولو أن هذا العشر أيقظ تسعة الأعشار لاستنفد جهودهم ولوصل بالسفينة وهي مصر الى حيث تصل السفن الأخرى وأصبحت بنجوة من المهالك ونجا هو ونجوا هم معه . وليس مايبذل من جهد ومال في تهذيب العامة واصلاح شأنهم بكثير وان عظم . ولو علم الناس مافي تركهم أبناء وطنهم فريسة للجهل وللضلال وللفقر وللأمراض الجسدية والنفسية من الأخطار المحققة التي لا يمكن أن يسلم منها مجموع الأمة لافتدوا سلامتهم بأموالهم وأنفسهم ، فما أشبه أبناء الوطن الواحد بأبناء أب واحد ، عنى بتربية فريق من هؤلاء الأبناء فشبوا مهذبين قادرين على كسب قوتهم من أحسن الوجوه ، ثم أدركته الوفاة قبل أن تشتد سواعد الفريق الآخر ويربيهم ، ثم أهمل اخوتهم تربيتهم فنشأوا جهلة مرضى النفوس عجزة عن كسب أقواتهم . فلا شك أن الفريق الأخير يصبح عالة على الأول مسئولا منه شرعاً وعرفاً ، فهو إما أن ينهض بأعبائهم ، وإما أن يستهدف لخطرهم ويكون هو أول فريسة لهم يسلبونه ماله وراحته وربما سلبوا روحه ، وما أكثر ما يمثل أمامنا من آن لآخر من هذه الحوادث

فيا أيها الشبان المتعلمون النجباء ، يارجال المستقبل القريب ، اعملوا من الآن على ايقاظ تسعة أعشار المصريين اخوانكم لئلا يكونوا عالة عليكم غداً ، بل ليكونوا عوناً لكم على احياء الحضارة واصلاح كل فاسد ، واحذروا أن تشتروا العاجل بالآجل بأن تؤثروا ساعات تقضونها في اللهو والكسل والخمول الآن على راحة المستقبل وسعادة المستقبل ، وتعالوا الى الميدان الذين فتحه لكم اخوانكم الاماجد أعضاء اللجنة التنفيذية لمشروع القرى وجال فيه جولات صادقات في هذه العطلة الصيفية أبطال من ذوي العزائم هم اخوانكم المتطوعون لمشروع القرى فكان هؤلاء وهؤلاء من المجاهدين السابقين الأولين الموفقين . تعالوا واعملوا لوطنكم منذ الآن تحت العلم الخفاق الذي يحمله علم مصر ونخرها في القرن العشرين أبو الطب غير منازع ولا مدافع ، الدكتور علي باشا ابراهيم واذكروا قول الشاعر

املأ الدنيا بما تستطيع من عمل يبقى اذا العمر ذهب
انما الأعمال تاريخ الفتى تقرأ الأجيال فيه ما كتب

تعالوا واعملوا للخير ، وفقكم الله لاسعاد أنفسكم ولاسعاد وطنكم وأبقاكم ذخراً له ما

عبد الله امين